مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد14/ العـدد: 01 (2026)، ص: 341-350

ملامح السخرية في رواية (الحمار الذهبي) لـ "لوكيوس أبوليوس"، قراءة نقديّة في أشكالها ووظائفها

Aspects of Satire in The *Golden Ass* by Lucius Apuleius: A Critical Reading of Its Forms and Functions

نصيرة بليليطة [1]

[1] جامعة الجزائر (2)، nacira.belilita@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/01 تاريخ القبول: 2025/11/20 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

ترصد هذه الورقة البحثية أشكال السخرية عند الكاتب "لوكيوس أبوليوس" في روايته (الحمار الذهبي)، تلك الرواية الّتي توسّلت بعالم الحيوان من أجل تأديّة وظائف محدّدة وتوجيه رسائل معينّة.

وللإشارة فإنّ رواية (الحمار الذهبي) في مجملها رواية عجائبية غرائبية، يتداخل فيها الواقع مع الخيال، حمّل فيها الكاتب الراوي بأكثر من وظيفة، إضافة إلى مهمّة السرد، فقد أرّخت للعصر الروماني، وسخرت من الدّيانات المنتشرة فيه، ومن هنا ينطلق بحثنا من إثارة إشكالية دلالات السخرية وأشكالها داخل المتن الروائي.

أعاد "أبوليوس" من خلال روايته (الحمار الذهبي) نسج الوعي السقراطي –أعرف أنّني لا أعرف- في قالب روائي؛ فاعتراف "لوكيوس" بأنّه لا يعرف هو اللحظة الّتي تنكشف فيها السخرية في أعمق تجلّياتها.

كلمات مفتاحية: السخرية، الحمار الذّهبي، أبوليوس، التحوّل.

Abstract:

This research paper examines the various forms of satire employed by the writer "Lucius Apuleius" in his novel (The Golden Ass), a work that draws upon the animal world to serve specific functions and deliver certain messages. Notably, *The Golden Ass* is a fantastical and eccentric novel in which reality and imagination intertwine. The narrator is tasked with multiple roles beyond storytelling—it is a narrative that offers a chronicle of the Roman era while mocking the prevalent religions of the time. From this perspective, our study explores the underlying meanings and
manifestations of satire throughout the novel.

Through *The Golden Ass*, Apuleius reimagines "Socratic" awareness—"I know that I know nothing"—in narrative form. Lucius's admission of his ignorance marks the very moment in which satire is most profoundly revealed.

Keywords: Satire, *The Golden Ass*, Apuleius, transformation.

***المؤلف المرسل:** نصيرة بليليطة

1. مقدمة

السخرية هي وسيلة غير مباشرة اتخذّها الأدباء سلاحا فعّالا لتصوير الحالة السياسيّة أو الاجتماعيّة أو الثقافيّة لمجتمع ما، وتعدّ رواية (الحمار الذهبي) لـ "لوكيوس أبوليوس" Lucius Apuleius (125-175م) أوّل نصٍّ سردي فانطاستيكي في الأدب العالمي، حيث اعتمدت على فكرة المسخ، من خلال تحوّل بطلها "لوكيوس" Lucius إلى حمار بسبب المرهم الخطأ، وهذا التحوّل الفانطاستيكي جسّد معنى رمزيّا تمثّل في أنّ استسلام الإنسان لغرائزه يجعله منحطّا، لذلك فالنّجاة لن تتحقّق سوى عن طريق المحن ثمّ التوبة لاسترضاء الآلهة.

فرواية (الحمار الذهبي) نسيج سردي موشّح بمسحة من السخرية والنّقد اللاّذع، وجهّها الكاتب "أبوليوس" إلى المجتمع الروماني في ظلِّ تفكّك مركزياته الفكريّة والسياسية، والسخرية من تصرّفات السحرة والأباطرة في القضاء الروماني، والغوص في أعماق النّفس الإنسانيّة لإعادة تشكيل الذات.

لذلك سنحاول من خلال هذه الدِّراسة الإجابة عن الإشكالية الرئيسة الآتية: كيف تحوّلت السخرية في رواية (الحمار الذهبي) من مجرّد فكاهة إلى آلية نقديّة فكّكت المجتمع الروماني، وكشفت عن زيف قيمه المعلنة، وعرّت هشاشة الأديان والأخلاق والسلطة؟

وعليه تهدف الدِّراسة إلى: - تحديد أشكال السخرية في رواية (الحمار الذهبي).

- البحث في كيفية استخدام السخرية أداة لنقد الواقع الاجتماعي والسياسي في العصر الروماني.

- بيان دور السخرية في كشف تناقضات المجتمع الروماني، وفساد حكّامه، وزيف تديِّنِه.

ولتحقيق هذه الأهداف، والإجابة عن الإشكالية المطروحة سنعتمد على خطة تتمحور حول:

أوّلا، ملخص رواية (الحمار الذهبي).

ثانيا، أشكال السخرية في رواية (الحمار الذهبي) ووظائفها.

ثالثا، الخاتمة.

اعتمدنا في هذه الدِّراسة على الطريقة الوصفية التّحليليّة، الّتي فرضتها طبيعة الموضوع.

2. ملخص رواية (الحمار الذهبي) لـ "أبوليوس"

ظهرت رواية (الحمار الذهبي) لـ "أبوليوس" في أواخر القرن الأول بعد الميلاد أي حوالي سنة 170م في قرطاج، وتتكوّن من أحد عشر كتابا، يحكي بشكل أساسي قصّة إنسان يهتمّ بالسحر، ويحبّ أن يتحوّل إلى طائر، ولكنّه يتحوّل إلى حمار.

بالإضافة إلى الحدث الرئيس، تحتوي الرواية بين طيّاتها على سبع عشرة قصة، ليس على علاقة وطيدة بالنّصِّ الأصلي، بعضها شهدها البطل بنفسه، والبعض الآخر سمعها، وهي:

1.قصة انتقام الساحرة "ميرو" من "سقراطيس".

2.قصة تشويه "تيليفرون".

3.قصة الأعمال البطولية الّتي قام بها اللصوص الثلاثة "لاماخوس"، "ألكيموس"، وتراسيليون".

4.حكاية الحبِّ والنّفس أو "آمور" و"بسيشة".

5.قصة الأعمال البطولية، الّتي قام بها اللصّ التركي "هيموس".

6.قصة ثأر خريطة من قاتل زوجها.

7.قصة العقاب البشع الّذي سلّطه سيِّد على عبد له خان زوجته.

8.حيلة امرأة أخفت عشيقها في برميل.

9.مغامرات الخيانة الزوجية، الّتي قام بها "فيليتايروس".

10.قصة العاشق المتخفِّي.

11.انتقام الأمّ، الّتي صدّها ربيبها، ومعاقبتها له.

12.الأعمال البشعة الّتي ارتكبتها امرأة معروفة بمزج السموم.

13.تقلّب "بيثياس".

14.موت الصبي الشرِّير.

15.قصة التنِّين.

16.موت الطحّان.

17.موت الإخوة الثلاثة، الّذين مزّقت أجسادهم الكلاب الضارية، (أبوليوس، 2004م، ص ص23/22).

وبطل الرواية هو الشاب "لوكيوس" أو "أفولاي" المحبّ للمغامرات، الباحث عن المعرفة، إذ يتحوّل من إنسان إلى حمار. فعندما سمع "لوكيوس" الشاب بأسرار سحر المرأة "بامفيلا" زوجة "ميلو" الّتي لديها القدرة على تحويل الكائن البشري إلى أنواع من الطيور والكائنات الخارقة حاول "لوكيوس" الفضولي التقرّب من خادمتها "فوتيس"، الّتي أراد منها أن تساعده في أن يتحوّل إلى طائر عن طريق جلبها لمرهم من سيِّدتها الساحرة "بامفيلا"، ولكنها لشّدة ارتباكها من أن يُكشف أمرها، ناولته علبة المرهم الخطأ، فأصبح بعد دهن جسمه به حمارا، وهنا تبدأ رحلة السخرية الّتي استفاد منها "أبوليوس" لينقل أفكاره، وتبدأ رحلة عذاب "لوكيوس"؛ ففي مغارة اللصوص وجد فتاة جميلة مختطفة، ومعها عجوز تحاول تسليتها، وقد حاولت الفتاة الهروب، لكنّ اللصوص أعادوها، ثمّ قام زوجها بحيلة مكّنته من تخليصها منهم رفقة الحمار.

عندما عادت الفتاة إلى أحضان أهلها حرصت على الاعتناء بالحمار، فأمرت رئيس الإسطبل بأن يُحسن معاملته ويرفق به، لكن هذا الأخير خالف أوامرها، واستغلّه في حمل الحطب وإدارة الرحى دون رحمة، ثمّ وقع في يد رهبان معبد "إيزيس" فاستعملوه في حمل تمثال الآلهة المقدّس، ولكن نكبته لم تنته، فقد وقع في قبضة زوجة طحّان عذّبته، وجعلت حياته جحيما لا يطاق، ثمّ وصل إلى أخوين يبيعان الحلويات فعاش حياة مستقرّة عندهما، ولأنّه كان يأكل من تلك الحلويات باعاه إلى صاحب مسرح عذّبه هو الآخر، لكن لحسن حظِّه استطاع الهرب.

وفي ذروة تصاعد الأحداث وتأزمّها تمكّن "لوكيوس" من الفرار بعد أن وُضع في الساحة ليقدِّم مشهدا مخزيّا، يتمثّل في ممارسته للجنس مع قاتلة قبل أن يتِّم إعدامهما معا، وبعد مغامرات صعبة ذاق بسببها الويلات المختلفة، وتعرّف فيها على مكائد البشر وحيلهم، يعود إلى حالته الآدمية بعد أن يغمر رأسه في البحر سبع مرّات، ويتضرّع للإلهة "إيزيس"-الّتي تمثِّل صفاء الرّوح ونقائها- فتحرِّره من طوق المسخ الحيواني، ثمّ تجعله راهبا متعبِّدا وخادما

وفيّا لها، ليصير كاهنا في معبدها، بعد أن يعتنق ديانتها. إنّها نهاية صوفية انتقل فيها "لوكيوس" من عالم الشهوات الدنيويّة إلى عالم الروّح السامية.

3.أشكال السخرية في رواية (الحمار الذهبي)

لمّا كانت السخرية تسعى إلى «تعويد النّاس وتدريبهم على ملكة النّقد الذاتي وتنبيههم إلى أخطائهم» (الحوفي، 2001م، ص 20)، فإنّها تتّخذ في رواية (الحمار الذهبي) أشكالا متعدِّدة من التهكّم الذاتي إلى الهجاء الاجتماعي اللّاذع، وصولا إلى السخرية أداة نقدية تحفر في عمق المجتمع الروماني وتكشف عن فساده.

1.3السخرية من الذات

لوكيوس" شاب في عنفوان شبابه، فضولي، مولع بحبِّ الترحال والأسفار، والمغامرات، محبّ للمعرفة والعلم، مؤمن بالسحر وغرائب الأشياء كما أقرّ به في أكثر من موضع، يقول: «...وأنا مولع بالأخبار الطريفة...لأنّي أريد أن أعرف كلّ شيء أو بعضه على الأقلِّ»، (أبوليوس، 2004م، ص42)، حيث اتّجه في رحلة من مدينة "كورنث" إلى مدينة "ثيساليا"، وفي طريقه يلتقي بشابين، فيدور بينهم حوار محتدم حول أعمال السحر، فيبدي "لوكيوس" فضولا وحماسا لتصديق حكاية الشاب "أرسطو مينيس" الّذي يدافع عن وجود السحر وفاعليته منحازا إليه ضدّ مرافقه "سقراط"، الّذي يرفض الأمر بشكل قاطع واصفا إيّاه بالسفيه، قائلا: «إنّك لعمري قليل الدراية بتلك الأمور الّتي تعدّها أباطيل بناء على أفكار مسبقة خاطئة، لأنّها تبدو جديدة على سمعك»، (أبوليوس، 2004م، ص9)، وبعد أن ينفصل عن رفيقيه ينزل ضيفاً في منزل الرّجل البخيل "ميلو" -بدعوى أنّه يحمل له رسالة توصية من "ديمياس الكورنيتي" كي يقيم عنده مؤقتا-، هذا الأخير الّذي كانت له زوجة تدعى "بامفيلا" ساحرة ذات قوّة شيطانية.

لم يكترث "لوكيوس" لتحذيرات قريبة أمِّه "بيرهينا" الّتي يصادفها في سوق المدينة قائلة: «وبحقِّ خوفي المسعور عليك، وبحقِّ حرصي على مستقبل مَن أعتبره بمثابة ابني...بحقِّي عليك إلاّ أخذت حذرك من فنون بامفيلا السيِّئة وإغراءاتها المضرّة» (أبوليوس، 2004م، ص61). فيتودّد إلى الخادمة "فوتيس"، كي تكون دليله إلى مختبر "بامفيلا" السحري، يقول: «ولكن إذا كنت تريدين حقّا أن أغفر لك من كلِّ قلبي الآلام، الّتي كنت أنتِ السبب فيها، فإنّي أطلب منك أن تستجيبي لرغبتي هذه، وهي أن تريني سيِّدتك عندما تقوم بعمل من أعمالها السحرية، عندما تستحضر الأرواح، أو على الأقل عندما تهيّأ لأعمالها هذه، حتّى أشاهد ما تقوم به» (أبوليوس، 2004م، ص88)، وهو ما تأتّى له حين أطلعته على عملية تحوّل للساحرة "بامفيلا" من امرأة إلى بومة بعدما أن دهنت جسدها بمرهم. فطالب "لوكيوس" الخادمة "فوتيس" بعلبة المرهم كي يتحوّل بدوره إلى نسر، ويهاجر إلى عالم المثل بعيدا عن رذائل المجتمع والانحطاط البشري، لأنّه عاجز عن المواجهة، يقول: «ولو جُبت الفضاء كلّه بأجنحة نسر أو كنت رسول ربِّ الأرباب...عندما أدهن جسدي بالمرهم وأرتدي ريّاش الطير، سأبتعد عن البيوت، الّتي يسكنها البشر...» (أبوليوس، 2004م، ص90)، فأخطأت "فوتيس" في تناول العلبة المناسبة، فكان نتيجة ذلك أن تحوّل إلى حمار، وراح يشاهد نفسه كيف أخذت تبرز في جسمه كلّ أعضاء الحمار، يقول واصفا عملية تحوّله: «وأكدّت لي ذلك أكثر من مرّة، ثمّ تسلّلت في اضطراب كبير إلى الغرفة، وأخذت علبة من الصندوق الصغير، فأخذتها بين يدّي وقبّلتها، ثمّ توسّلت إليها أن تمنحني أجنحة...وأدخلت في العلبة، وغرفت كمية معتبرة من المرهم، ودهنت بها جسمي، وأخذت

أجّرك ذارعي صعودا وهبوطا، وأتمرّن على طائر معيّن، لم ينم لي زغب قطّ، ولا ظهرت لي ريشة واحدة! لكنّ شعري نما بشكل واضح وأصبح خشنا، وصارت بشرتي الناعمة طبقة سميكة من الشحم، وتجمّعت أصابع يدي وقدمي ليتحوّل كلّ منها ببساطة إلى حوافر، وانبثق في أسفل ظهري ذيل عظيم،...حيث لم يعد في وسعي أن أحتضن فوتيس» (أبوليوس، 2004م، ص ص 91/90)، حيث انتقل من صورة الإنسان المتعلِّم الحرّ إلى كائن مقيّد مسلوب الإرادة.

لم يفض تحوّل "لوكيوس" الإرادي إلى مجرّد شعور بالاغتراب عن محيطه الاجتماعي فحسب، بل نتج عن هذا التحوّل ألما نفسيّا وجسديّا حسرة على هذه الهيئة الجديدة الّتي أخرجته من الإنسانية إلى أدنى مرتبة وهي الحيوانية، يقول: «أنا الّذي حوّلتني في هجمتها الشرسة إلى حيوان، حيوان رديء من ذوات الأربع، لا بدّ أن يثير شقاؤه أعتى المجرمين وشفقته...أردت أن أقول في زحمة فروغ صبري لم أفعل ذلك!» (أبوليوس، 2004م، ص150).

إنّ تحوّل "لوكيوس" إلى حمار يعكس رحلة داخلية للنموِّ الرّوحي، فهذا التحوّل الجسدي هو تجسيد رمزي للبحث عن الهوية المفقودة، فـ «انعزال النّفس المفكِّرة الواعية عن الجسد، يتيح الفرصة لاستكشاف هذه الهوية الكامنة في طبيعتها المعنوية المجرّدة»(أبو بكر، 1994م، ص240)، رغم أنّه ما يزال يحتفظ بعقله البشري، يقول: «أمّا أنا فقد احتفظت بعقلي البشري، مع أنّي كنت قد تحوّلت من لوكيوس إلى حمار على أتمِّ ما يكون...» (أبوليوس، 2004م، ص91)، فبعدما كانت رغبته الأولى هي تعلّم السحر والتّحليق، نجده يتمنّى لو أنّه لم يقترب أبدا من السحر، فيحيِّذ إنهاء حياته على أن يحيا منبوذا وسط مجتمعه، يقول: «حين وجدت نفسي في شبكة مقادير من هذا النّوع، أصبحت لا أبالي بحياتي وعزمت على تناول هذه الورود السامّة طوعا واختيارا» (أبوليوس، 2004م، ص96).

فـ "لوكيوس" يفكِّر بمنطق وحكمة، وذلك واضح من الحوار الّذي يدور داخله في بعض مقاطع الرواية، يقول: «أخذت أشاور نفسي فترة طويلة وبشكل مسهب فيما إذا لم يكن من واجبي أن أصكّ المرأة التافهة الملعونة بحافري وأقتلها عضّا!...» (أبوليوس، 2004م، ص91)، ويقول في مقطع آخر: «ومن ثمّ طاف بذهني أنّ بيغاسوس الشهير كان أشدّ خوفا من الطيران» (أبوليوس، 2004م، ص173)، فرغم تلك الهيئة الحيوانية، إلاّ أنّ ذكاءه الإنساني كان عونه لتجاوز جميع المصائب الّتي اعترضته.

إنّ تحوّل "لوكيوس" إلى حمار يحيل على العقاب القاسي لكِّل متطِّفل وفضولي، لم يرض بإنسانيته، كما يحيل على ذلك الجزاء الذي يستحقه الزناة ومنحطّوا الأخلاق، فالرذيلة هي سبب المسخ، ذلك أن "لوكيوس" أقام علاقات جنسية غير شرعية مع خادمة مضيفه "ميلو"، يقول: «ما كدت أضطجع في فراشي، حتّى اقتربت منِّي فوتيس مبتهجة، بعد أن رافقت سيِّدتها إلى فراشها، وقد تزيّنت بالورد، ووضعت برعما فوق صدرها...» (أبوليوس، 2004م، ص67).

فالرواية من خلال تحوّل "لوكيوس" إلى حمار تسخر من المعرفة المزيّفة والمحرّمة الّتي تفسد طبائع البشر، وتذهب بالعقل إلى الهاوية، فالسحر عند "لوكيوس" هو معرفة يجب إتقانها والإلمام بها، ثمّ إنّ خلاصه على يد الإلهة "إيزيس" هي سخرية لاذعة من محدودية القدرة البشرية، فالبطل الّذي حاول أن يكون ساحرا انتهى به الأمر

إلى توسّل الآلهة لإنقاذ ذاته في مشهد يفضح هشاشة المنظومة القيمية للمجتمع الروماني الّذي يدّعي القوّة والحكمة ، تقول الإلهة "إيزيس": «لقد جئت هنا رحمة بك في عذاباتك، أنا هنا لأحسن إليك وأنعم عليك، فاعزف الآن عن البكاء، وتخلّ عن الشكوى، وانبذ الحزن، الآن يبزغ يوم سعادتك بفضل عنايتي فاصغ إليّ إذن وانتبه إلى ما آمرك به» (أبوليوس، 2004م، ص231)، لأنّ الإنسان في نظر الآلهة ما هو إلاّ خادم لها، يقول "فراس السواح": «فالجنس البشري محكوم عليه بالكدِّ والمشقة لأنّ الآلهة قد خلقته ليحمل عبء الكدح عنها» (السواح، 2001م، ص91).

2.3 السخرية من المجتمع الروماني

قدّم لنا "أبوليوس" لوحة كاريكاتورية لروما في القرن الثاني، حيث كشف لنا عبر مغامرات "لوكيوس" الحمار قسوة المجتمع الروماني وفساد حكّامه، من خلال استغلال الفقراء واضطهاد الضعفاء، ممّا يعكس صورة ساخرة عن الظلم والفوارق الطبقية الواضحة في المجتمع الروماني آنذاك، واستغلال السلطة، يقول "لوكيوس": «كانت هناك موائد فاخرة لامعة مصنوعة من خشب الحوامض والعاج، وأرائك مغطّاة بأغطية ذهبية، وأقداح كبيرة ذات أشكال جذّابة متنوّعة، وكلّها ذات قيمية واحدة، كان ثمّة زجاج مصقول بطريقة فنّية، وبلور نقّي، وفي مكان آخر فضّة ملتمعة وذهب برّاق، ومعادن اتّخذت أكوابا، كلّ الأشياء الّتي يتصوّرها المرء مستحيلة، كانت متوفرة هناك، وكان ثمّة عدد من الخدم، يرتدون ثيابا رسمية فاخرة، يقدِّمون صحاف الطعام المليئة للضيوف في أناقة، وعدد من الولدان في ثياب رائعة تعلوها شعور متماوجة يقدِّمون بلا انقطاع أحجارا كريمة شبيهة بالأكواب المليئة بالخمر المعتّقة» (أبوليوس، 2004م، ص69)، وقد أدّى هذا النظام الاجتماعي غير المتوازن إلى اتّساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

فينبغي «قراءة (الحمار الذهبي) قراءة متأنيّة في سياق انهيار العقل، واضمحلال المركزية الرومانية وتفككّها، بحيث لم تعد روما هي معبد الثقافة ولكنّها انسحبت، أو بدأت تفعل ذلك، تاركة مكانها لمناطق أخرى مثل أثينا» (الأعرج، 1990م، ص64)، فرواية (الحمار الذهبي) ليس مجرّد قصة لتحوّل إنسان إلى حمار، وإنّما هي سردية تعكس أزمة حضارية وانزياحا في مركزية العالم القديم، فبعد أن كانت الإمبراطورية الرومانية مركز العالم، تراجعت مكانتها، لتحلّ محلّها مراكز ثقافية جديدة مثل أثينا.

3.3 السخرية من الدِّين والسحر

أحد أبرز مظاهر السخرية كان موجّها نحو الدّيانات والطقوس الدِّينية المشبوهة، والرهبان المزّيفين، حيث ذُكرت في الرواية مجموعة من الأديان والمعتقدات، الّتي انتقدها "أبوليوس"؛ فقد تميّزت العديد من الاحتفالات الدِّينية بالاحتيال والجهل، وأغلب المتديّنين استخدموا الدِّين لتحقيق أهدافهم الخاصة.

فكهنة الإلهة "السورية" يستغلّون جهل النّاس، فيجوبون البلاد بتمثال لإلهة وهمية، ويمارسون طقوسا صاخبة، ويدّعون القدرة على التنبؤ والتكهّن، وشفاء المرضى لجمع الأموال، وهو مشهد يفيض بالسخرية من الزّيف الدِّيني، يقول الراوي: «أخذوا الصدقات من النحاس ومن الفضّة أيضا، الّتي تسابق الكثير في تقديمها إليهم، ووضعوها في أجربتهم الواسعة، وأخذوا زيادة على ذلك برميل خمر وحليبا وجبنا وشيئا من الفريك والدقيق، ومن

ذلك أيضا الشعير لحامل الإلهة، جمعوا هذا كلّه في جشع، وحشوه في الأكياس» (أبوليوس، 2004م، ص180)، ففي سلوكهم يتجلّى الورع والتّقوى، لكنّهم في الحقيقة مجموعة من المحتالين البارعين، يقول الراوي: «بقوا هناك عدّة أيّام، ملأوا بطونهم خلالها بهبات الشعب السخية، وحشوا جيوبهم بما أخذوه من ثمن العرّافة، ثمّ فكّر هؤلاء الكهنة في طريقة جديدة، فكانوا يطبّقون النبوءة نفسها على حالات كثيرة، ويخدعون على هذا المنوال العديد من النّاس، الّذين كانوا يسألون عن أشياء متباينة، وصيغة النبوءة هي:

تحت النير يشقّ الثور الأرض

لينبت الزرع وينمو مستقبلا!...» (أبوليوس، 2004م، ص187).

وتنزع الرواية عن الآلهة رداء القداسة، فهي مثل البشر في سلوكها ونزواتها؛ فكبير الآلهة "جوبيتر" يغار، و"فينوس" تنتقم، والإله "كوبيدو" -ابن إلهة الجمال "فينوس"- يقع في حبِّ فتاة بشرية، فهذه القصة الأخيرة يمكن قراءتها كاستعارة ساخرة عن صراع بين الحبِّ الإلهي (كوبيدو) والنّفس البشرية (بسيشة)، الّتي يدفعها فضولها لمخالفة رغبة زوجها، الّذي لم يكن يرغب في أن تراه، فتُضيء مصباحا في وجهه وهو نائم، لتكتشف بأنّه إله وليس إنسان، ليرحل ويتركها تواجه مصيرها مع والدته "فينوس"، الّتي لم تكن راضية على هذا الزّواج، يقول الراوي: «لم تكن تراه بعينيها، لكنّها كانت تحسّه بيديها وتسمعه بأذنيها» (أبوليوس، 2004م، ص ص 115/114).

والسحر أحد أهمّ الركائز الّتي اعتمد عليها "لوكيوس" في بناء نصِّه السردي، فانتقد بسخرية لاذعة الاعتقادات الشعبيّة في ممارسة السحر، وسفه سلوكيات السحرة، وكيف يؤدِّي الانغماس في هذه السلوكيات إلى عواقب وخيمة، بل وصوّر السحرة والدجّالين بأسلوب هزلي مبالغ فيه، ممّا يكشف زيف ما يُروّج له من خرافات وادِّعاءات، فحين يسخر "أبوليوس" مثلا من النساء الساحرات فإنّه يعمّق من جهة النّقد الاجتماعي، ومن جهة أخرى يكرِّس صورهم النمطية، يقول أحد المارة مجيبا "لوكيوس" على سؤاله حول قصّة فرار الموتى: «اسكت! أنت لا تزال شابّا غرّا، ثمّ إنّك غريب، ولهذا فأنت لا تعرف بطبيعة الحال أنّك في تساليا، الّتي تقرض فيها الساحرات وجوه الموتى في جميع النواحي، ليتّخذن منها أخلاطهنّ السحرية الكاملة» (أبوليوس، 2004م، ص71).

4.3 السخرية من الأخلاق

كثير من النّاس يلبسون أقنعة مختلفة، فكان لا بدّ من كشف هذه الأقنعة، من أجل الوصول للحقيقة، ولتحقيق ذلك دسّ حمارا مفكِّرا يرى ولا ينطق، يشاهد ويسجِّل ويلاحظ ولا يُعلم به، حيث يقضي "لوكيوس" بعد تحوّله إلى حمار ليلته الأولى في إسطبل مع حمار ثانٍ وحصان، بانتظار أن تأتيه حبيبته "فوتيس" صباحا بباقة من الورد ليأكل منها كي يعود إلى طبيعته الآدمية، لأنّ علاج التحوّل هو قضم الورود، لكن لسوء حظِّه، تعرّض البيت في الليلة نفسها لسطو لصوص، فحملوا المسروقات عليه وذهبوا به إلى مغارتهم في أحد الجبال، يقول الراوي: «فتح الباب بقوّة في لحظة واحدة، ودخلت مجموعة من اللصوص واستولت على كلِّ ما في البيت، وأحاطت بالبناية كلّها شارعة أسلحتها، وبينما كان النّاس يستغيثون هنا وهناك، حاول اللصوص أن يسدوّا المسالك في وجوههم، فكانوا يضيئون اللّيل بسيوفهم الملتمعة...» (أبوليوس، 2004م، ص92).

وهناك يتعرّف إلى فتاة حسناء اختطفها اللصوص ليلة عرسها، وراح ينصت للحكاية الّتي طفقت ترويها العجوز الّتي تخدم اللصوص، وتحت ضغط التّهديد ينتهز الحمار الفرصة للفرار، فتمتطيه الفتاة وتبوء المحاولة بالفشل، ثمّ يأتي شاب ادّعى أنّ له تجارب كثيرة في ميدان اللصوصية، فانبهروا بمهاراته فقلّدوه منصب قيادتهم، واتّضح أنّه خطيب الفتاة الّذي سُلبت منه ليلة عرسهما، وأوقعهم في فخِّه بعد أن خدّرهم سكرا وفرّ بحسنائه على متن الحمار "لوكيوس"، فردّت الحسناء الجميل للحمار بأن سلّمته لأبيها كي يعتني به، غير أنّ حظّه اللّعين يزجّ به في تجارب مأساوية جديدة؛ فقساوة الغلام عليه بحمل الحطب، ووقوعه في يد صاحب طاحونة بعد القبض على الرهبان بتهمة السرقة، وعودته الشاقة إلى تدوير حجر الرحى، والأفدح كره زوجة الطحّان له، ووقوعه في يد البستاني الّذي مارس عليه أفظع أشكال التّجويع، وهكذا دواليك إلى أن سُلِّم إلى أخوين يشتغلان طبّاخين عند أحد المترفين، فكان يلتهم أطعمتهما ممّا خلق صراعا بينهما، وباكتشافهما لضلوع الحمار في ذلك الأمر الشائن فوّضا أمره لسيِّدهما، الّذي أبدى إعجابه به وسلّمه لشخص لقنّه ألاعيب بهلوانية، وتاجر به ضمن عروض ساخرة (غزالي، 2024م، https://www.majalla.com)، يسرد "لوكيوس" هذه المغامرات قائلا: «وراحت تضربني ضربا شديدا بهراوة من فروع الشجر، لأطحن لها ولأسرتها دقيقا بعرق جلدي تطبخ منه خبزا ...وطحنت القمح بدوراتي للجيران أيضا، وحرمتني أنا الحقير التافه حتّى من نصيبي المقرّر من الشعير...وانتدبت لنقل الحطب من الجبل، وعيّن رئيسا لي شاب شرير من جميع نواحيه فلم يكفه أن يتعبني بعلوّه ووعورته، ولم يكفه أن تجرح الحجارة المسنّنة حوافري، وإنّما راح فوق ذلك يضربني بهراوة دون انقطاع...وشرعت أتأمّل بنوع من السرور عمل الطاحونة مع أنّه لم يكن مريحا» (أبوليوس، 2004م، ص ص 189/157).

وسيطرت الخيانة الزوجية على أحداث الرواية، فلم يكن التّفريق بين المرأة العفيفة والخائنة أمرا سهلا، حيث يروي قصّة زوجة اللباد المرأة العفيفة، ذات السمعة الطيِّبة، والّتي دنّست نفسها وألحقت بشرفها العار عندما وقعت في حبِّ أحد الزناة، وأقامت معه علاقة سريّة دائمة، يقول الراوي: «وقد حدث أنّها كانت مع عشيقها في اللحظة الّتي أتينا فيها، بعد الحمام، لتناول الطعام، فسبّب لها ظهورنا المفاجئ فزعا، فأخفت ذلك الرجل، تحت قفص من أعراف شجر الصفصاف... لم تبق لها قيمتها بصفتها زوجة، وإنّما اتّخذت لها إضافة إلى ذلك اسم البغي!» (أبوليوس، 2004م، ص ص 196/195).

تعرّض "لوكيوس" الحمار خلال مغامراته لمواقف قاسية في واقع متعفِّن لم يجد فيه سوى الضرب، والقسوة، والعذاب، والاحتيال، وقد مكّنته هذه المغامرات من اكتشاف طبائع البشر، وأفعالهم المنحطّة، وعرف ضروب الفسق الآدمي، يقول: «وإنّي لأحبّ أن أشكر جلد الحمار الّذي لم يكد يزيد من ذكائي عندما ارتديته وتعرّضت لمغامرات عديدة، ولكنّه زوّدني بمعارف جمّة» (أبوليوس، 2004م، ص100).

فمن خلال تعامل "لوكيوس" مع مختلف الشخصيات (اللصوص، المحتالين، النساء الفاتنات، الكهنة الفاسدين...) يظهر "أبوليوس" كيف تتسِّم العلاقات الإنسانيّة بالمصلحة والجشع، والخيانة، ممّا يظهر سخرية مريرة من الانحلال الأخلاقي الّذي كان سائدا في المجتمع الروماني، فمشهد القاضي الّذي يحكم بإعدام حمار لأنّه أفسد فراش أحد النبلاء يدلّ على هشاشة قوانين السلطة وتفاهتها، لدرجة تكثر في الرواية مواقف مضحكة ساخرة تعبِّر

برمزيتها عن موقف معيّن من العالم كلّ حسب دلالته، فمثلا يحدِّث "لوكيوس" الحمار نفسه ساخرا: «ولكن أيّ نوع من اللعنات الرهيبة، أستطيع أن أصبّه على رقبة فوتيس، الّتي لم تحوّلني إلى كلب، وإنّما حوّلتني إلى حمار! فقد رأيت الكلاب كلّها تتلقّى نصيبا من الأطعمة الفاخرة أو تأخذها بنفسها وتأكل منها فوق كفايتها» (أبوليوس، 2004م، ص156)، ففي نظر "لوكيوس" الحمار أنّه لو مُسخ إلى كلب لكانت الآلام أقلّ ضررا.

أضاع "لوكيوس" حياته بدخوله عالم السحر، حيث مرّ بالكثير من المصائب والتجارب القاسية، الّتي كادت أن تودي به إلى الانتحار، فتعلّم أن لا يقع ثانية في عتمة السحر، ذلك أنّ الإنسان حسب "بول ريكور": «يتعلّم دوما بعد فوات الأوان، بعد أن تكون المأساة قد جرفته، وحين يصبح فطنا حكيما يكون قد أضاع حياته» (ريكور، 2005م، ص55).

فالكاتب في روايته (الحمار الذهبي) أراد أن يعلم مكنونات البشر، وأن يكشف ما يخفونه، وأن يُميط اللثام عن خباياهم وأفعالهم، ومنطلقاتهم الفكريّة وشعائرهم.

4. خاتمة

توصّلنا في نهاية دارستنا إلى مجموعة من النتائج نوجزها في النقاط الآتية:

- تعدّ السخرية في رواية (الحمار الذهبي) أداة "أبوليوس" الأساسية لنقل رؤيته والتّعبير عن أفكاره.
- أشكال السخرية الّتي حوتها رواية (الحمار الذهبي) هي جهاز معرفي يعيد تشكيل علاقتنا بذاتنا من خلال موضعتها ضمن مسارها الصحيح.
- إنّ رواية (الحمار الذهبي) هي رواية نقدية ساخرة للمجتمع الروماني، واستجابة لمقتضيات واقعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والدِّيني، حيث يدعو من خلالها لمراجعة المعتقدات والمقدّسات.
- رواية (الحمار الذهبي) هي تجلٍّ لأشكال الانحطاط الاجتماعي والسياسي والعقائدي، الّتي ميّزت العصر الروماني، ممّا يجعلها عملا أدبيّا فلسفيّا عميقا يتجاوز زمانها ومكانها.
- لقد أعاد "أبوليوس" من خلال روايته (الحمار الذهبي) إلى الأدب فكرة "سقراط" "أعرف أنّني لا أعرف شيئا"، ففي هذا الاعتراف أقصى درجات تجلّي السخرية، وهي أنّ إنسانية المرء لا تكتمل إلاّ حين يتصالح مع "حماره" الدّاخلي كجزء أصيل لا ينفصل عن كينونته، وهو إدراك يقوده إلى المعرفة الحقيقية.

5. قائمة المراجع:

الكتب

الحوفي، أحمد. (2001م). *الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها*. مصر: نهضة مصر للطباعة والنّشر.

ريكور، بول. (2005م). *الذات عينها كآخر* (ط1)، تر: جورج زيناتي. لبنان: المنظمّة العربيّة للترجمة.

السواح، فراس. (2001م). *الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية)* (ط2). سوريا: دار علاء الدِّين.

أبوليوس، لوكيوس. (2004م). *رواية الحمار الذهبي*، تر: أبو العيد دودو. لبنان: الدّار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.

أبو بكر، أميمة.(1994م). المسخ في حكايات ألف ليلة وليلة. *مجلّة فصول*، ع1، ص240، https://archive.alsharekh.org

الأعرج، واسيني (1990م). أحلام بقرة: العجائبية/ التّأويل/ التناص. *مجلّة آفاق*، ع1، ص64، https://archive.alsharekh.org

مواقع الانترنيت

إسماعيل غزالي (2024م)، الحمار الذهبي من أقدم السرديات الكبرى في التّاريخ: المجلّة، 2024/12/28م، https://www.majalla.com